من روائع الشرق والغرب

الوادى

LE VALLON

لشاعر الطبيعة والجمال لامرتين

تعب قلبي من كل شيء حتى من الأمل ،
فلن يُثقل بعـــد اليوم بأمانيّه على القدر ،
فأعرني يا وادىَ صـــبای وأحلامی ،
ملجأ يوم انتظر فيـــه موافاة حمـــای

* * *

ذلك هو الشِّعب يضرب فى حشايا الوادى ،
والغابات الكثيفة تقوم على سـفوح الرُّبى ،
وأدواحها الحانيـة تلقى الظلال على جبيني
فتملأ شـعاب نفسى بالسكون والغبطـة

* * *

وهناك جدولان اختفيا تحت أعراش الخضرة ،
يرسمان فى انســـيابهما منعطفات الوادى ،
ثم يمتزج منهما الموج بالموج والخرير بالخرير ،
ويفنيان وهما من المنبع على مدّى قصير

* * *

كذلك جرى نبع أيامى جريان هذين الجدولين ،
ثم ذهب من غير هدير ولا سمة ولا رجعة !
ولـكن ماءهما كان صافياً شديد الصـــفاء ؛
أما نفسى فلم يتراءَ فى كدرها صفو ولا هناء !

* * *

إن طراءة الجدولين ورودة الظلال ،
تعقلانني طيـــلة النهار على ضفافهما الخصيبة ،
أهدهد نفسى على خرير مائهما السـلسال ،
كما يُهدهَدُ الطفل على الناغاة الرتيبـــة (١)

* * *

آه ، حبذا المقام هنا بعيداً عن الناس وحيداً مع الطبيعة !
يحيط بى سور أخضر من رياض الأرض ،
ويقوم حوالىّ أفق محدود فيـه مجال للبصر ،
فلا أسمع غير همس الموج ولا أبصر غير وجه السماء

* * *

لقد رأيت كثيراً وأحسست كثيراً وأحببت كثيراً
ثم جئت هنا حيّا لأبحث عن هدوء (ليتيه)! (٢)
فيا أيها الوادى الجميـــل ! كن لى ذلك
النهر الذى يُذهب بالنسيان هموم القلب !
فى النسيان وحده منـذ اليوم سعادتى ونعيمى

* * *

إن قلبي فى رخاء ونفسى فى سكون ،
وإن ضوضاء العـــالم لتفنى قبل أن تصل إلىّ
كالنغم البعيد يخفت على طول المـدى
ثم لا يقع منـه فى الآذان إلا صـدى

* * *

من هـــذا المقام ومن خلال ذاك الغمام
أرى الحيـاة حولى تغوص فى غيابة الماضى ،
فلم يبق ماثلاً غير الحب يقوى ويتجدد ،
كالصورة الكبيرة تبقى على اليقظة من حلم تبدد

* * *

استروحى يا نفس فى هـــذا الملجأ الأخير ،
كالمسافر اللاغب يجلس على باب المدينـة ،
وقلبـــه ذاخر بالأمل والطمأنينـــة ،

(١) الرتيبة التى تسير على نمط واحد : monotone

(٢) Léthé هو فيما تزعم الأساطير الوثنية نهر من أنهار الأنفير Les enfers وهو مقام الأرواح بعد الموت ، تشرب منه هـذه الأرواح فتنسى ماضيها ، وليتيه معناه النسيان

فيستنشى قبل أن يدخل نسيم المساء العبيق

* * *

فلتنفض عن أقدامنا الغبار كما تنفض هذا الرجل المجهود ،
فانا لن نسلك هـــذه الطريق مرة أخرى ؛
ولنُنْشِئ منـــزله فى آخر المدى المحـــدود ،
نفحاتِ الهـــدوء المبشر بالسلام الدائم

* * *

إن أيامك الكئيبة القصيرة كأيام الخريف ؛
تنقبض انقباض الظلال عن حوادر الهضاب ؛
فالصداقة تغدربك ، والرحمة تتخلّى عنك ،
وتقطع وحدك الدرب الى عالم القبـــور

* * *

ولـكن الطبيعة هناك تُهيب بك وتحنو عليك !
فألق نفسك فى أحضانها التى لاتتجافى عنك ،
فان كل شىء يتنكر لك وينزوى عنك إلا الطبيعة ،
فجوُّها هو الذى ينضـــح على آلامك ،
وشمسهـــا هى التى تشرق على أيامك

* * *

بالأشعة والظلال لا تزال تحيطنا الطبيعة .
فطهر قلبك من الغرور الباطل والمتاع الزائل ،
واعبد هنا الصدى الذى كان يعبده فيثاغورس ،
وأرهف أذنك مثله لموســـيقى السماء .

* * *

ثم اتبع الشمس فى السماء والظل فى الأرض ،
وطِرْ فى السهول مع ريح الشـــمال ،
وجُسّ مع شـــعاع هذا الكوكب الهادى
خلال الغابات فى ظلال هـــذا الوادى .

* * *

إن الله خلق العقول لتدركه ،
فاكتشف فى الطبيعـــة خالق الطبيعـــة ؛
فان صوتاً لايَنِي يُحدث المرء عن ربه ،
ومن ذا الذى لم يُصغِ إلى هذا الصوت فى قلبه ؟

الزيات

صائب التبريزى [1]

أبيات شتى

١ — نحن كالقسىّ : نصيبنا من صيدنا انحناء ظهورنا ، وكل ما نحوز لغيرنا

٢ — ليدى جرأة غير ما عهـد الناس ؛ لا تجنى غصناً غفل عنه الحرّاس

٣ — ليس الظالم بنجوة من سهام آهات المظلوم ، إن أنين القوس قبل أنين الهدف المكلوم

٤ — يا رب من دعا علينا أن نكون كقافلة الأمواج : ليس فى سفرنا للاستراحة منزل

٥ — ليس اطمئناناً سكون القلب فى مصابه ، ولـكن ضاقت الدنيا عن اضطرابه . إن خفقان النجم يصيح فى لوعة : ليس هذا البناء الموج مكاناً للدعة

٦ [2] — ختم المجلس ليلاً بحديث طرتك المسلسلة ، فنهض كل من نهض وفى رجليه سلسلة . إن الأعصار الذى هبّ فى هذه الصحراء ، روحه المجنونة الحائرة يلفّها الغبار فى الفضاء

٧ — إن الجذبة التى سلبت كفّ المجنون العنان ، بدأت فقطعت من محمل ليلى الزمام

٨ — ليست أوجه الاثنتين والسبعين ملة إلا إلى هـذه السدة ؛ ترى عالماً حيران ، ولم يضل أحد طريقه

٩ — إن قطرة من الدموع تكفى لخراب العالم ، كما تبدد قطرات الماء نوم النائم

١٠ — ولّ وجهك شطر الحانة ثم انظر طمأنينة القلب — انظر عالماً فارغاً من فكر الغد ، إنك تطبق كالحباب عينك فترى نفسك ، ولو فتحت عينك للضياء ، لأبصرت فناءك فى هذه الدأماء

١١ — إن عينى لتطير كالشرار الى نوم الفناء ، كلما بعدت عن وجهك النارىّ الوضاء

١٢ — أضاء فى كل ظفر هلال للعيد ، ليلة تناولت كأساً من ذكرك السعيد عبر الوهاب عزام

(١) محمد على صائب التبريزى من كبار شعراء الفرس ، توفى فى اصفهان سنة ١٠٨٧ هـ .

(٢) القطع الآتية مشربة بالمعانى الصوفية